

المحور الخامس

الثبات على الإيمان

- و في هذا الموضوع نطوف حول ثلاث نقاط كالتالي : -
- أولا : العلم بأن التثبيت من الله
- ثانيا : وسائل التثبيت الأساسية
- ثالثا : الثبات بعوامل خارجية (إعجاز القرآن الكافرين)

الدرس الأول

الثبات من الله

قال تعالى (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَبُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذَا لَأَدْفَنَّاكَ فِي سَحَابٍ مُمَاتٍ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةٌ مِمَّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) (77)

قوله (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا) (73) تتجلى في هذه الآية أسمى مراتب البلاغة والبيان؛ إذ تصوّر بدقة متناهية شدة الضغوط والفتن التي تعرض لها النبي ﷺ من قبل المشركين، وضراوة حربهم النفسية والاجتماعية لصدّه عن صراط الله المستقيم. لقد بلغت محاولاتهم من القوة والالتواء حدًا كادوا معه أن يثنوا عزيمته عن إبلاغ رسالته، أو يقطعوا طريق دعوته.

لقد استنفد الكفار وسعهم في محاولات بائسة ومتكررة لتبديل هذا المنهج الإلهي القائم على العدل والرحمة. فلما أعجزهم أن يحرفوا نصّ القرآن الحكيم أو يغيّروا حروفه ومبانيه - كما فعل أهل الكتاب من قبلهم - عمدوا إلى الالتفاف حوله مستهدفين مضمونه ومخرجاته التطبيقية.

وفي سبيل ذلك، سلّكوا مسلك المساومة والاشتراط؛ فطلبوا منه مراراً إقصاء الضعفاء والمساكين من مجلسه - وهم الطليعة المؤمنة التي صدّفته وآزرتة - لينفرد بالدعوة وجهاء القوم وأهل الجاه والسلطان والنفوذ دون غيرهم.

وكانت غايتهم الخبيثة من هذه القسمة الجائرة هي إسقاط جوهر الدين وقيّمته الإنسانية من أساسها؛ فلو استجاب لهم - وحاشاه - لأقرّ بامتيازاتهم الطبقية، ولأظهروا له المودّة والاتباع، متخذين إياه خليلاً. وتلك هي حقيقة فتنتهم: محاولة مكررة للحيلولة بين الرسالة الخالدة وبين عموم الناس.

هذا هو مكمن الخصومة وجوهر النزاع بينهم وبينه؛ إذ رمّوه بقالتهم: (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ). فقد نَعَصَ عليهم الحسدُ أن يسيّقهم الضعفاء والمستضعفون إلى هذا الفضل، فوهبوا أنّ النبي ﷺ قد يبتهجّ بإسلامهم إن هم أعلنوه، مشروطاً بإقصاء أصحابه وطردهم؛ كبلالٍ وصُهيبٍ وسلمانٍ وغيرهم، لاسيما في ظل ذلك المنعطف الذي كدّبه فيه كثير من الناس بَعْدَ رحلة الإسراء والمعراج.

بيد أنّ سَعْيَهُمْ ضَلَّ وَخَابَ ظَنُّهُمْ في أن يقبل الله ركنًا قائمًا على الجور؛ فمهما ادّعوا الإيمان بالرسول وما يتلوه من الذكر الحكيم، فإنّ مُساومتهم تلك تُعني تفرّغ المنهج الإلهي من مضمونه الحق، وإفساد ركائز الفهم السليم لجوهر الرسالة

يقول الشعراوي فالمعنى : (لو أنك تنازلت عن المنهج الذي جاءك من الله لصيرت خليلاً لهم ، كما كنت خليلاً لهم من قبل ، إذ كانوا يحبونك ويقولون عنك « الصادق الأمين » . إذن : الذي جعلهم في حالة عداء لك هو منهج الله

الذي جئت به لهم ، فلو تنازلت عنه أو تهاونت فيه فسوف يتخذونك خليلاً ، فلا تكن خليلاً لهم بل خليلاً لربك الذي أرسلك¹

فهذه المقايضة أو المساومة التي يبتغيها أعداء الإسلام مع النبي ﷺ لا تنبيه عن المضي قدماً في دعوته مع أصحابه ، فمهما استخفوا بهم فهم في عينيه أقوياء ، ففي الحديث أن عبد الله بن مسعود كان يحتز² لرسول الله ﷺ سوكا من أراك، وكان في ساقيه دقة، فضحك القوم، فقال النبي ﷺ : "ما يضحكم من دقة ساقيه، والذي نفسي بيده إنهما أثقل في الميزان من أحد"³

فلم يكن لرسول الله ﷺ أن يجاري قريشاً في شيء من تبديل منهج الله أو تحريف وحيه. بل إن الله سبحانه عاتبه عتاباً رقيقاً حين انشغل بوجهاء مكة عن الصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم؛ ليكون هذا العتاب تنقيحاً لذهنه الشريف من أي محاولة لاستمالتهم، وقطعاً للطريق أمام شروطهم الفاسدة التي يربأ للإسلام حتى عن الاستماع إليها. فإذا كانت قدم عبد الله بن مسعود عند الله أثقل من جبل أحد، فإن مجرد الإصغاء لتلك المساومات الباطلة يُعدُّ مظنة ميلٍ إليهم. ومن هنا، عصم الله نبيه بهذه الآيات عن سماع ذلك اللغط، حسماً لأطماعهم في استمالتهم، وإحباطاً لفتنهم، ليخفف صدهم وعنادهم، ويتفرغ الصادع بالحق لرعاية أصحابه ونشر دعوته.

قال صاحب الظلال (هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله ، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً ، محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلاً عن استقامة الدعوة وصلابتها . ويرضوا بالحللول الوسط التي يغروهم بها في مقابل مغام كثيرة ، ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً ، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية ، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق ، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة ، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها! لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء! والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها ، فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغر ، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل ، لا يمكن أن يكون مؤمناً بدعوته حق الإيمان !) .

¹ (تفسير الشعراوي ج1 ص 5276

²) أي أنه صعد نخلة أو شجرة ليقطع شيئاً من ثمارها أو فروعها للنبي ﷺ -ولعله سواك كما في الحديث - فكشف عن ساقيه أثناء الصعود فاستبان للصحابة ضعف ساقيه ونحافتهم فضحكوا لأجل ذلك

³ (رواه ابن حبان في صحيحه ج 15 ص 546 رقم 7069

إسناده حسن من أجل عاصم، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم. وهو في "مسند أبي يعلى" "5310".

وأخرجه ابن سعد 155/3، وأبو نعيم 127/1 من طريق عفان، بهذا الإسناد.

وأخرجه الطيالسي "355"، وأحمد 420/1 - 421، وفي "فضائل الصحابة" "1552"، وأبو يعلى "5310"، والفسوي 545/2 - 546، والبخاري "8452" من طريق عن حماد بن سلمة، به. وذكره الهيثمي في "المجمع" 289/9، وقال: وأمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقيّة رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح: وأخرجه الطبراني "8453" من طريق أبي وائل، عن ابن مسعود.

وأخرجه الطبراني "8454" من طريق سارة بنت عبد الله بن مسعود عن أبيها ابن مسعود قال: بينما هو يمشي وراء رسول الله ﷺ إذ همزه أصحابه أو بعضهم، فقال رسول الله ﷺ "والذي نفسي بيده لعبد الله في الموازين يوم القيامة أثقل من أحد"، كأنهم عجبوا من خفته.

وأخرجه "8517" من طريق الأزهر بن الأسود عن ابن مسعود، بنحوه.

وأخرجه ابن أبي شيبة 113/12 من طريق زائدة عن عاصم، عن زر، قال: جعل القوم يضحكون مما تصنع الريح بعيد الله تلقية، قال: فقال رسول الله ﷺ "لهو أثقل عند الله يوم القيامة ميزانا من أحد".

قوله (وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئْنَاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَزْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) (74) قال ابن عطية : « الركون » شد الظهر إلى الأمر أو الحزم على جهة السكون إليه ، كما يفعل الإنسان بالركن من الجدران ، ومنه قوله تعالى حكاية ، (أو آوي إلى ركن شديد) [مود : 80] ⁴ ، ورسول الله ﷺ لم يركن ، لكنه كاد يهيم بموافقتهم طمعاً منه في استئلافهم ، ولذلك قيل (كدت) ، التي تفيد المقاربة ، وهي تؤكد المعنى أنه لم يقع منه ركون ، إنما هي خطرة قليلة لم تتأكد في النفس ، وهذه الخطرة مما لا يمكن دفعها ، كهّم يوسف عليه السلام ، وقوله (شيئاً قليلاً) يبطل إثبات وقوع القليل من الركون منه ⁵.



والنبي ﷺ يعلم أن الثبات على الحق من الله تعالى القائل في كتابه (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) (ابراهيم 27) ، وأنه لا قوة له إلا بالله ، يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَرَاغَهُ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ قَالَ وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) ⁶ ، وعن أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ لفاطمة (ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي إذا أصبحت وأمسيت : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين) ⁷

(فلو لم يُرِ الله نبيّه يوسف برهانه، لَوَقَعَ فيما هَمَّتْ به، ولو لم يَكُنْ على إبراهيم بُرْشده، وعلى موسى بتأييده، وعلى آدم وسليمان بالتوبة والإنابة.. لَمَّا قَوُّوا على مغالبة ذلك الزخم العاتي من الضغوط، ومواجهة تلك الأمواج الهادرة من الخطوب. لكنّ الله سبحانه تداركهم بلطفه، وحَمَّهم بمدده وتأييده. وفي هذا التأييد الإلهي بشارّة كبرى لكلّ السالكين دَرَبَ الجنان؛ فبالرغم من أنّ طريق الاستقامة شاقٌّ عسير، تندكُّ من ثِقَلِهِ الجبال، إلا أنّ معونة الله هي التي تمنح القلوب ثباتاً لا يتزلزل، ومَضَاءً لا يلين) ⁸

فمن أهم عوامل الثبات اللجوء إلى الله بالدعاء ، فهذا يدل على (الاستعانة بالله وحسن الظن به وإخلاص العبادة له، وذلك من أقوى الأسباب المعينة على تثبيت الله لعبده بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ⁹

فعن شداد بن أوس قال : قال لي رسول الله ﷺ (يا شداد بن أوس إذا رأيت الناس قد اكتنزوا الذهب والفضة فاكتر هؤلاء الكلمات اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد ، وأسألك موجبات رحمتك وعزائم

⁴ ابن عطية : المحرر الوجيز ج4 ص 264

⁵ ابن عطية : المحرر الوجيز ج4 ص 264

⁶ رواه ابن ماجه ج1 ص 231 رقم 195 وصححه الألباني صحيح ابن ماجه ج1 ص 40 رقم 195

⁷ رواه البيهقي في شعب الإيمان ج1 ص 476 رقم 761 وصححه الألباني السلسلة الصحيحة ج1 ص 226 رقم 227

⁸ علي بن نايف الشحود : موسوعة فقه الابتلاء ج4 ص 310 مع بعض التصرف

⁹ علي بن نايف الشحود : موسوعة فقه الابتلاء ج4 ص 370

مغفرتك وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وأسألك خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم واستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب (10).

قوله (إِذَا لَدَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) (75) في ذلك كناية على تراكم المصائب والأرزاء في مدة الحياة ، وزوال البهجة والسرور الحاصلان بتمام الدعوة ، وكناية عن الاستدلال بين الكفار بعد أن أشرفوا على السقوط ، وذلك حال الركون إليهم شيئا قليلا ويدل بمفهوم المخالفة أن الذي يمضي في دعوته ثابتا على الرشد هو من يرزقه الله حلاوة الحياة الدنيا ولذة الطاعة وحسن الخاتمة.

وليس في هذا تهديد للنبي ﷺ ، فالله يعلم أن حبيبه لا يقبل أن يفتن في دينه ، وإنما هو خطاب لأمته ، فإذا كان ظاهر الخطاب للنبي ﷺ شديدا فإن الأمة أولى بأن تعي ذلك ، وذلك لأن لكل منا وظيفة ، والثبات على تلك الوظيفة واجب ، وليس بنافلة ، ومثال ذلك كقوله سبحانه في شأن وظيفة الجن (وَمِنَ الْجِنَّةِ مَن يَعْمَلُ بَيِّنًا يَدِينُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) (سبا/12) ، فمن ترك وظيفته لم يذق غير وبال أمره ، ولذلك كان النبي ﷺ حريصا على أن يقول في أكثر من حديث (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ اللَّهَ أَشْهَدُ)، وكان مما أمر ببلاغه لأمته حادثة الإسراء والمعراج التي تنأى العقول عن استيعابها لولا الإيمان بالله وبالرسول .

قوله (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) (76) تنزلت الآية الكريمة في العهد المكي قبيل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة؛ لتصور بدقة ذلك الواقع العصيب الذي عاشه المصطفى ﷺ بعد أن اشتد أذى قريش وتكالبها عليه، لاسيما عقب فقده نصيره الداخلي زوجته خديجة بنت خويلد، وعمه أبا طالب الذي كان يزود عنه. وقد بلغت غطرسة الكفار مداها حين اتهموه بالجنون عقب صدوعه نبأ رحلة الإسراء والمعراج.

وتعكس الآية ذلك الاستفزاز الشديد والضغط المتواصل الذي مارسه أهل مكة؛ لجعل البقاء فيها مستحيلا، حتى كاد النبي ﷺ يساق إلى الخروج منها سوفاً، وهو عين ما تنبأ به ورقة بن نوفل في بواكير البعثة النبوية، حين اصططحته السيدة خديجة للاستشارة عقب نزول الوحي أول مرة، فجاء في الحديث: (فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعًا! لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْخُرَجِي هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُّؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُؤَيِّ وَفَرَ الْوَحْيِ) 11.

¹⁰ (رواه الطبراني في المعجم الكبير ج 7 ص 279 رقم 7151 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج 13 ص 31 رقم 3228
¹¹ (رواه البخاري ج 1 ص 5 رقم 3

وفي بيان الإعجاز الغيبي للآية وعاقبة الظالمين، يقول الإمام ابن جزى: (فلما خرج النبي ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة لأجل إذاية قريش له ولأصحابه، لم يبقوا بعد ذلك إلا قليلاً، وقتلوا يوم بدر)¹². فكانت الاستجابة القدرية سريعة؛ إذ هلك صناديد الكفر الذين قادوا لواء التكذيب والأذى، حيث قُتل أبا جهل في معركة بدر، ولم يتأخر عنه أبو لهب كثيراً، إذ أصابه بؤسه فمات بمرضٍ عضال بعد الوقعة بأيام قلائل.

قوله (سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً) (77) أي ما من قرية أخرجت رسولها إلا كان خروجه منها سبباً لعذابها وهلاكها، كما في قوله (فَإِذَا نَذَهَبَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ) (41) أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ) (الزخرف/42)، وقال سبحانه (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (التوبة/33)

وقد حصل ذلك بعدما خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة فقتل رؤوس الكفر من قريش، ووقع في الأسر سبعون منهم، ولم تلبث قريش بعد ذلك إلا أن انسل منها من أسلم منهم مهاجراً للنبي ﷺ أو كاتماً لإيمانه حتى فتحها الله له نهاراً دون قتال، فأسلمت قريش من أولها لآخرها.

الدرس الثاني

وسائل التثبيت

قال تعالى (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَكُفِّرًا (83) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)

- (1) الصلاة
- (2) القرآن
- (3) الدعاء
- (4) الاستبشار بالنصر
- (5) الاستشفاء بالقرآن
- (6) معرفة الله في الرخاء
- (7) الصبر عند الشدة
- (8) إصلاح النية أثناء العمل
- (9) تفويض العلم والأمر لله

الوسيلة الأولى للتثبيت : الصلاة

قوله (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) (78) قال الشنقيطي (هذه الآية الكريمة من الآيات التي أشارت لأوقات الصلاة لأن قوله "لِذُلُوكِ الشَّمْسِ" ، أي: (لزوالها على التحقيق، فيتناول وقت الظهر والعصر ، بدليل الغاية في قوله "إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ" أي ظلامه، وذلك يشمل وقت المغرب والعشاء ، وقوله "وَقُرْآنَ الْفَجْرِ" ، أي: (صلاة الصبح)¹³ .



¹³ (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ص 179)

قوله: "لِدُلُوكِ الشَّمْسِ" (لزوالها على التحقيق، فيتناول وقت الظهر والعصر) معنى الدلوك: في اللغة هو الميل. وعلى التحقيق عند المحققين هو زوال الشمس عن وسط السماء إلى المغرب (أي بدء ميلها بعد الظهر).

الصلوات المتناولة: دخول وقت الزوال يبدأ منه وقت الظهر، ثم يمتد إلى وقت العصر؛ فصار هذا اللفظ شاملاً لهاتين الصَّلَاتين.

قوله: "إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ" أي ظلامه، وذلك يشمل وقت المغرب والعشاء معنى الغسق: هو الظلمة أو اشتداد ظلمة الليل وبدايته.

الصلوات المتناولة: غاية المدة المذكورة هي أول ظلمة الليل وهو وقت المغرب، يلي ذلك امتداد الليل ودخوله في ظلامه وهو وقت العشاء؛ فانظم اللفظ صلاتي المغرب والعشاء

قوله: "وَقُرْآنَ الْفَجْرِ" أي صلاة الصبح المراد بالقرآن هنا: القراءة التي تُقرأ في صلاة الفجر، وتسمية الصلاة باسم جزءٍ منها (وهو القراءة) مجاز مرسل شائع في لغة العرب.

الصلوات المتناولة: صلاة الصبح (الفجر)، وسميت "مشهودة" لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيها

وجاء ذكرُ مواقيت الصلاة الخمس في هذا الموطن متسِّفاً غاية الاتساق مع سياق السورة؛ إذ تظل سورة الإسراء بظلال رحلة المعراج النبوية التي كانت مهذاً لفرض هذه الصلوات. وتتجلى عظمة الصلاة في كونها الركيزة الأسمى لتحقيق الثبات على الإيمان، ذلك الإيمان الذي يربو بالطاعات وينحسر بالمعاصي؛ فجاء توزيع مواقيتها على امتداد النهار وآناء الليل ليكون بمثابة غيث متجدد، يؤكد حاجة العبد الدائمة لطلب التثبيت من الله، ويضمن له تطهيراً دؤوباً يتخفف به من أوزار الخطايا أولاً بأول".

فعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال (تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْفَجْرَ غَسَلْتُمَا ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلْتُمَا ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ غَسَلْتُمَا ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْمَغْرِبَ غَسَلْتُمَا ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعِشَاءَ غَسَلْتُمَا ثُمَّ تَنَامُونَ فَلَا يَكْتُبُ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَسْتَيْقِظُوا)¹⁴.

وقد جمع الإمام الألباني الأحاديث الصحيحة في فضل الصلوات الخمس في كتابه كنوز السنة النبوية نذكر منها ما روي عنه ﷺ :-

قال رسول الله ﷺ (إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا يَنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ: يَا بَنِي آدَمَ قُومُوا إِلَىٰ نِيرانِكُمْ الَّتِي أَوْقَدْتُمُوهَا فَاطْفُئُوهَا)¹⁵
قال رسول الله ﷺ (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بَابَ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟) قَالُوا لَا يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ فَكَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا)¹⁶

¹⁴ (رواه الطبراني في المعجم الصغير ج 1 ص 91 رقم 121 والأوسط 358/2 وصححه الألباني: صحيح الترغيب والترهيب 86/1 وقال رواه الطبراني في الكبير موقوفاً عليه ورواته محتج بهم في الصحيح

¹⁵ (حسن لغيره الطبراني في الأوسط والصغير.

¹⁶ (صحيح بخاري ومسلم والنسائي.

قال رسول الله ﷺ (من حافظ على الصلوات الخمس ركوعهنَّ وسجودهنَّ ومواقيتهنَّ وعلم أنهن حق من عند الله، دخل الجنة، أو قال وجبت له الجنة، أو قال حُرِّمَ على النار)¹⁷.

قال رسول الله ﷺ (لن يلج النار أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها)¹⁸

قال رسول الله ﷺ (من ثابر على اثنتي عشرة ركعةً في اليوم والليلة دخل الجنة، أربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر)¹⁹

قال رسول الله ﷺ (إن أقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ولقد هممت أن أمُر بالصلاة فتقام ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس ثم أنطلق معي برجال معهم حُزْمٌ من حطب إلى قومٍ لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار)²⁰.

الوسيلة الثانية للتثبيت : تلاوة القرآن لاسيما حال الصلاة

قوله (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)²¹ قال العلماء (أراد صلاة الفجر فسمى الصلاة مرة قرآناً ، والقرآن مرة صلاة ، لانتظام أحدهما الآخر)²²، واستدلوا على ذلك بحديث أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ تَفْضُلُ صَلَاةِ الْجُمُعِ عَلَى صَلَاةِ أَحَدِكُمْ وَحْدَهُ بِخَمْسَةِ وَعَشْرِينَ جُزْءًا ، وَجَمْعُ مَلَائِكَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ "وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا"²³ .

وجاء في فضل صلاة الفجر ما روي عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ)²⁴، وعنه قال ﷺ (ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها)²⁵ ، وقال رسول الله ﷺ في الذي يقوم لصلاة الفجر (فيصبح نشيطاً طيب النفس قد أصاب خيراً وإن لم يفعل أصبح

(17) حسن لغیره الإمام أحمد

(18) صحيح مسلم

(19) صحيح النسائي والترمذي وابن ماجه.

(20) صحيح البخاري ومسلم.

(21) يقول الدكتور الطبيب محمد نزار الدقر في كتابه روائع الطب الإسلامي ص 51 (تؤكد الباحثة الفرنسية نيريس دي أن عبارة "النوم المبكر والاستيقاظ المبكر يجعل الإنسان صحيحاً وغنياً وحكيماً" و"إن ساعة النوم قبل منتصف الليل تساوي ثلاث ساعات بعده" فيها بعض الحقيقة، ولقد تبين أن 70٪ من نومنا العميق غير الحالم يحدث خلال الثلث الأول من الليل، وعندما نتجاوز النوم قبل منتصف الليل فإننا نفقد كثيراً من نومنا العابر غير الحالم.

ويرى الدكتور الراوي (أن ريح الصبا التي تهب في ساعات الفجر لها تأثير لطيف بحس به الإنسان ويستدق حلاوته حيث يكون الهواء المشبع بالأوزون، وقد تبين أن لهذا الغاز تأثيرات رائعة على الجملة العصبية والمشاعر النفسية والنشاط العضلي والفكري، كما أن أروع الإنتاجات الصوتية والتلحين الجميل سجلت وقت الفجر الباكر ، وهكذا فإن قارئ القرآن الكريم بحس بقبالية عجيبة وقت الفجر من حيث نقاوة الصوت وصفاته والقدرة على التلحين الجميل، هذا عدا عما فيه من خشوع وصفاء. وقد أشار القرآن الكريم إلى سر هذه المعجزة العلمية عند قوله تعالى: (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) الإسراء.

ويتابع الدكتور الراوي (12) قوله: وفي الحديث النبوي المعجز "بورك لأمي في بكورها" إشارة إلى سبق علمي عن تأثير ريح الصبا على إنتاج الإنسان العقلي والعضلي خاصة وقد أمر بالقيام إلى صلاة الفجر في الغلس ليستنشق الهواء المشبع بالأوزون وليبعث في أجهزته كلها الطاقة والفعالية والصحة الوفيرة، العلماء اليوم ينصحون الذين يرغبون دواء شبابهم وحيويتهم بالنهوض المبكر مؤكدين أن المعمرين الذين يتمتعون بقوة الشباب وصلوا إلى هذا العمر المديد المشحون بالحيوية بسبب استيقاظهم المبكر واستمتاعهم بريح الصبا كل يوم.

ويؤكد مؤلفا كتاب (مع الطب في القرآن) (6) هذه الحقائق عن فوائد الاستيقاظ المبكر، ويضيفا أن هذا الاستيقاظ يقطع النوم الطويل الذي يعرض المسنين للإصابة بالعصيدة الشريانية وخرق الصدر وكثرة حدوث الجلطة القلبية، ويضيفا أن أعلى نسبة للكور تيزون في الدم هي وقت الصباح الباكر حيث تبلغ 22-7 مل/مغ/مل من الدم، وأخفض نسبة لها تكون في المساء ومن المعروف أن الكور تيزون هو الهرمون الهام في البدن والذي يعمل على رفع فعاليات الجسم وتنشيط استقلاباته بشكل عام، ويختم المؤلفان بحثهما بقولهما "وهكذا نجد أن المسلم الملزم بدينه هو إنسان فريد بالفعل يستيقظ مبكراً لاستقبال يومه الجديد بهمة ونشاط وحيث تكون إمكاناته الذهنية والعضلية في أعلى مستوى مما يؤدي إلى زيادة الإنتاج في المجتمع.. وإن تعمم هذه الظاهرة في المجتمعات الإسلامية تظهر منها مجتمعات متميزة تدب فيها الحياة منذ مطلع الفجر".

(22) التبريزي : مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح ج3 ص 233

(23) رواه النسائي ج2 ص 283 رقم 482 والبخاري في صحيحه ج14 ص 332 رقم 4348

(24) رواه مسلم ج3 ص 392 رقم 1049

(25) صحيح مسلم والترمذي

كسلاً خبيث النفس لم يصب خيراً²⁶ ، وقال رسول الله ﷺ (من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فإن من يطلبه من ذمته بشيء يدركه، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم)²⁷ .

ومن السنة المكث بعد صلاة الفجر في المسجد حتى طلوع الشمس ، فعن سماك بن حرب قال : سألت جابر بن سمرة : (ما كان النبي ﷺ يصنع إذا صلى الصبح ؟ قال : (كان يجلس في مجلسه حتى تطلع الشمس)²⁸ ، وفي رواية عن جابر بن سمرة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى الْفَجْرَ جَلَسَ فِي مُصَلَّاهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَسَنًا²⁹ .

وجاء في فضل الجلوس بعد صلاة الفجر لقراءة القرآن وذكر الله ما روي عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَنْ صَلَّى الْعِدَّةَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ) قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (تَامَّةٌ تَامَّةٌ تَامَّةٌ)³⁰ .

قوله (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ) (79) أي التهجد في جوف الليل ، قال المناوي أي (حال غفلة الناس واستغراقهم في لذة النوم)³¹ ، قال العلماء (ولا يكون التهجد إلا بعد النوم ، وتلك النومة هي الهجوع ، قال تعالى (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) (الذاريات/71) ، (فالهجوع النوم ، والتهجد القيام)³² .



قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الصَّيَّامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ الصَّيَّامُ أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ قَالَ فَيُشَفِّعَانِ)³³ .

عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ثَلَاثَةٌ يُجِبُّهُمْ اللَّهُ -وذكر منهم- وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ نَزَلُوا فَوْضَعُوا رُءُوسَهُمْ فَقَامَ أَحَدُهُمْ يَتَمَلَّقُنِي وَيَتَلَوُّ آيَاتِي³⁴ ، فالحديث يدل على أن من تعود قيام الليل والتهجد فيه فإنه يداوم على هذه العادة حتى وإن كان على سفر رغم أن له رخصة في تركه في هذا الحال لإجهاده وإعيائه ، قال ابن بطلال (تبه الله عباده على الدعاء في هذا الوقت الذي تخلو فيه النفس من خواطر الدنيا)³⁵ .

26 (صحيح ابن ماجه.

27 (صحيح مسلم وأبو داود والترمذي.

28 (رواه الطبراني في المعجم الكبير ج2 ص 216 رقم 1889

29 (رواه مسلم ج3 ص 424 رقم 1075

30 (رواه الترمذي ج2 ص 457 رقم 535 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 11

31 (التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج1 ص 956

32 (قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ج1 ص 41 المؤلف محمد بن علي عطية الحارثي المشهور بأبي طالب المكي

33 (رواه أحمد ج13 ص 375 رقم 6447 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص39 رقم21

34 (رواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط الشيخين ج1 ص 577 رقم 1520 ، ورواه الترمذي ج9 ص 132 رقم 2492 وصححه شعيب الأرناؤوط :

صحيح ابن حبان ج8ص136 رقم 3349

35 (شرح صحيح البخاري ج10 ص 89

قوله (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) (79) ولا شك أن المقام المحمود المحجوز للنبي ﷺ بين الخلائق أن تجاز شفاعته يوم القيامة من بين الأنبياء جميعا ، فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ (إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُنًّا كُلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ يَا فُلَانُ اشْفَعْ يَا فُلَانُ اشْفَعْ حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ) ³⁶، روي عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ³⁷ .

كذلك فإن المحمود بمفهومه الواسع ليس خاصا بالنبي ﷺ وإنما يحق لمن اتبعه واستن بهديه أن ينال مرتبة محمودة ودرجات عالية ، فللصلاة بالليل والناس نيام درجة عظيمة ومقام محمود ، ولأجل ذلك تحتصم الملائكة في الملأ الأعلى مع بعضها البعض لتقدير ثوابها

قال رسول الله ﷺ (أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثوبي فعلمت ما في السموات وما في الأرض ، فقال يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت نعم في الكفارات والدرجات :-

فالكفارات هي : (المكث في المساجد بعد الصلوات والمشي على الأقدام إلى الجماعات وأسبغ الوضوء في المكاره ، قال صدقت يا محمد ، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه، وقال يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمي وتوب علي وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون) ³⁸

والدرجات هي : (إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام) ³⁹.

الوسيلة الثالثة للتثبيت :- التزام الدعاء على كل حال والتوكل على الله

قوله (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) (80) تهيأ النبي ﷺ بما تقدم لاستقبال ما تنبأ به ورقة ابن نوفل من أن قومه سوف يخرجوه من مكة مطاردة ، وأنه سوف يهاجر منها إلى المدينة ، فعن ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ ثُمَّ أُمِرَ بِالْهَجْرَةِ فَتَزَلَّتْ عَلَيْهِ (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) ⁴⁰ ، فعن عبد الله بن عدي : قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو على راحلته بالحزوة يقول : (والله إنك خير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت) ⁴¹، فلما استعد النبي ﷺ للهجرة سأل الله تعالى التوفيق والسداد ، واستعان بسلطانه على أعدائه ، فكفاه الله شرهم ، فليس لنا سلطان إلا بالله ، وكفى به سلطانا نصيرا.

36 (رواه البخاري ج14 ص 334 رقم 4349

37 (رواه البخاري ج2 ص 481 رقم 579

38 (*) رواه الترمذي ج11 ص27 رقم 3157 وصححه الألباني صحيح الترمذي ج3 ص97 وصحيح كنوز السنة 59/1

39 (رواه أحمد والترمذي ج11 ص27 رقم 3157 ، ومصنف عبد الرزاق وعبد بن حميد ، وصححه الألباني صحيح وضعيف سنن الترمذي 233/7 رقم 3233

40 (رواه الترمذي ج10 ص413 رقم 3064 وقال حسن صحيح

41 (رواه الحاكم ج3 ص8 رقم 4270 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص1305 رقم 13045

وعن بن عباس قال : سمعت النبي ﷺ يدعو بهذا رب أعني ولا تعن علي ، وانصريني ولا تنصر علي وامكر لي ولا تمكر علي ، ويسر لي الهدى وانصريني علي من بغى علي ، رب اجعلني شكارا لك ذكارا راهبا لك مطوعا لك محبنا لك أوأها منيبا ، تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي واهد قلبي وسدد لساني واسلل سخيمة قلبي⁴².

الوسيلة الرابعة في التثبيت : الاستبشار بالنصر

قوله (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (81) لقن الله تعالى نبيه درسا يرفع الروح المعنوية ، فجعله يستبشر منذ لحظة خروجه من مكة مُطاردا ، مؤكداً له أنه على الحق وقد جاء الحق ليزهق الباطل ، وما هي إلا أيام وشهور وسنوات حتى جاء فتح مكة وتحقق وعد الله ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتُّونَ نَضْبًا فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِغُودٍ فِي يَدِهِ وَجَعَلَ يَقُولُ (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ)⁴³، وهكذا بشره الله بتعالى بأنه سوف يجيء إلى مكة- مرة أخرى - ليزهق الباطل ، وذلك قبل أن يفتحها بأكثر من ثمانية أعوام .

يقول سيد قطب (بهذا السلطان المستمد من الله ، أعلن مجيء الحق بقوته وصدقه وثباته ، وزهق الباطل واندحاره وجلاءه ، فمن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت ، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق ... حقيقة لدنية يقررها بصيغة التوكيد . وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة . فالباطل ينتفخ ويتنفج وينفش ، لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة؛ ومن ثم يحاول أن يمحو على العين ، وأن يبدو عظيماً كبيراً ضخماً راسخاً ، ولكنه هش سريع العطب



، كشعلة الهشيم ترتفع في الفضاء عالياً ثم تخبو سريعاً وتستحيل إلى رماد؛ بينما الجمرة الداكية تدفئ وتنفع وتبقى؛ وكالزبد يطغو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء).

الوسيلة الخامسة للتثبيت : الاستشفاء بالقرآن

⁴² (رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 232 رقم 665 وصححه الألباني صحيح ابن ماجه2/323 صحيح الترمذي178/3 صحيح ابي داود
⁴³ (رواه البخاري ج8 ص 374 رقم 2298

قوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..) (82) قال ابن القيم (فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب ، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ، ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزالة الداء من القرآن)⁴⁴ ، قال سبحانه (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ..) (فصلت/44) .

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ) [يونس: 57] ، قال ابن القيم (فالقرآن هو الشِّفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كُلُّ أحدٍ يُؤَهِّل ولا يُوفِّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوى به، ووضعَه على دائه بصدقٍ وإيمان، وقبول تام، واعتقادٍ جازم، واستيفاءٍ شروطه، لم يُقاومهُ الداء أبداً... وكيف تُقاومُ الأدواء كلامَ ربِّ الأرض والسماة الذي لو نزل على الجبال، لصدَّعَها، أو على الأرض، لقطعها، فما من مرضٍ من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيلُ الدلالة على دوائه وسببه، والحِمية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه)⁴⁵.

فلكي تنفع الرقية بالقرآن لابد من اليقين ، كما قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَهُ)⁴⁶ ، قال ابن القيم (ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقابها هي في نفسها نافعة شافية ، ولكن تستدعى قبول المحل "القلب" وقوة همة الفاعل وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفعلة أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية ، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء ، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء لقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول ، وكذلك القلب إذا أخذ الرقاة والتعاويذ بقبول تام وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء ، وكذلك الدعاء فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب ، ولكن قد يتخلف عنه أثره إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان ، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء



الدعاء مع اليقين كالسهم المنطلق من قوس مشدود ، وتخلف اليقين عن الدعاء كالسهم الذي يقع من قوس رخو

⁴⁴ (الجواب الكافي ج 1 ص 3

⁴⁵ (زاد المعاد ج 4 ص 352

⁴⁶ (رواد الترمذي ج 11 ص 383 رقم 3401 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج 3 ص 164 رقم 2766 ورواه الحاكم في صحيحه ج 1 ص 670 رقم 1817

فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا ، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً ، وإما لحصول المانع من الاجابة من أكل الحرام والظلم ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها⁴⁷.

قوله (وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) فالقرآن شفاء للمؤمنين ، أما غير المؤمن فإنه يزداد به خساراً ، وذلك لأنهم يراهنون الناس على أنه كتاب مفترى وليس من عند الله ، فكلما ثبت صدقه وإعجازه كلما خسروا وازدادوا خساراً ، فعن قتادة قال (ما جالس القرآن أحدا فقام عنه إلا بزيادة أو نقصان ثم قرأ الآية)⁴⁸.

وهذه الآية توطئة لحال الآية التي بعدها ، ذلك أن الخسران يعني التبطر على النعمة والجزع عند النعمة ، ولذلك قالوا أن من لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له ، يعني شفاء لما في قلبه من داء .

الوسيلة السادسة للتثبيت : معرفة الله في الرخاء

قوله (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ..) (83) هذا وصف للحالة النفسية للإنسان الظالم الذي يزداد خساراً كلما ثبت له صدق الكتاب وإعجازه له ، فحاله بخلاف حال المؤمن الذي حاله بين الشكر والصبر ، أما هذا الظالم فحاله الإعراض والتكبر على نعمة الله عليه ، فلا يأبه لما عليه من واجبات ، يقول النبي ﷺ (الْكِبْرُ بِطَرُوفِ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ)⁴⁹.

ومفهوم المخالفة يدل على أن شكر الله على نعمة الرخاء سبب من أسباب التثبيت على الحق ، قال رسول الله ﷺ (احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)⁵⁰ ، قال المناوي (بتفريجها عنك وجعله لك من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً)⁵¹

الوسيلة السابعة للتثبيت : الصبر عند الشدة

قوله (..وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُفُوسًا) (83) وكذلك حال الكافر أو المنافق هو اليأس والقنوط من رحمة الله عندما يمسّه الشر ، فهو جزع من أقل مصيبة ، قال الزمخشري (اليأس صفة الكافر)⁵² بدليل قوله تعالى (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) [يوسف/87] ، قال الألوسي (القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، ولما كان أثره

⁴⁷ (الجواب الكافي ج1 ص 3

⁴⁸ (سنن الدارمي: ج2/ص530 موسوعة أطراف الحديث ج1 ص 248803 رقم 248083

⁴⁹ (رواه مسلم ج1 ص 247 رقم 131

⁵⁰ (رواه البيهقي في شعب الإيمان ج2 ص 27 رقم 1074 وأحمد في مسند ج6 ص 198 رقم 2666 وصححه الألباني :الجامع

الصغير ج1 ص 528 رقم 5272

⁵¹ (فتح القدير ج3 ص 331

⁵² (الكشف ج6 ص 170

الدال عليه لا يفارقه كان في ذكره ثانياً بطريق أبلغ ، وقدم اليأس لأنه صفة القلب ، وهو أن يقطع رجاءه من الخير ، وهي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من التضاول والانكسار⁵³.

الوسيلة الثامنة للتثبيت : إصلاح النية

قوله (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرِيقُكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا) (84) يقصد بالشاكلة "النية" التي محلها القلب ، فقد بوب البخاري باباً بعنوان الأعمال بالنية ، وذكر هذه الآية ثم قال (على نيته)⁵⁴ ، (يقال على شاكلته أي على خليقته وطبيعته وهو من الشكل يقال لست على شكلي وشاكلي)⁵⁵ ، قال السمين الحلبي (والشاكلة: أحسن ما قيل فيها ما قاله الزمخشري: أنها مذهبه الذي يُشاكل حاله في الهدى والضلالة ، من قولهم: "طريق ذو شواكل" وهي الطرق التي تشعبت منه)⁵⁶.

فأخلاق البشر وتصرفاتهم تدل على من هو المهتدي منهم ، ومن هو الضال ، قال النبي ﷺ (النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اتَّخَلَفَ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ)⁵⁷ ، قال المناوي (معدن كل شيء أصله أي أصول بيوتهم تعقب أمثالها ويسري كرم أعراقها إلى فروعها)⁵⁸.

أي أن النية الحسنة تقود إلى العمل الصالح ، والعكس صحيح لقوله سبحانه (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) (الليل 5-10) ، يقول النبي ﷺ (كُلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ)⁵⁹ ، أي (موفق ومهيأ لما خلق له) أي (لما قدر له من الخير والشر)⁶⁰ ، أي أنه مهية لعبادة ربه لقوله سبحانه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فهو مهية لأن يشكر الله على النعمة ويصبر على النعمة ، ميسر لأن يعمل الخير ويكف عن الشر ، ولكنه حين يعمل عكس ذلك فإنه يخالف فطرته التي فطره الله عليها ، ولا شك أن الذي يسير على الفطرة هو المهتدي بخلاف من الذي ضل وخالفها ، فمن استقام عنده أمر النعمة والنقمة واعتدل مزاجه حسن عمله ، ومن تكبر على النعمة وجزع عند النقمة مال مزاجه فساء عمله ، وكل ذلك مرهون بما يضمرة الإنسان في صدره من نية حسنة أو سيئة .

يقول ابن القيم (فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة لأنها أكبر من ذلك وأجل والنفس المهينة الحقيرة والخسيسة بالضد من ذلك ، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها وهذا معنى قوله تعالى "قل كل يعمل على شاكلته" أي على ما يشاكله ويناسبه فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته

⁵³ (تفسير الألويسي ج18 ص 218)

⁵⁴ (رواه البخاري ج1 ص 93 وهو قول مروى عن الحسن : انظر الدر المنثور للسيوطي ج6 ص 313 من رواية ابن المنذر

⁵⁵ (شهاب الدين الهانم المصري : التبيان تفسير غريب القرآن ج1 ص 268

⁵⁶ (الدر المصون في علم الكتاب المكنون ج1 ص 3846 ، الكشف ج3 ص 476

⁵⁷ (رواه مسلم ج13 ص 89 رقم 4774

⁵⁸ (فيض القدير ج6 ص 383

⁵⁹ (رواه مسلم ج13 ص 108 رقم 4789

⁶⁰ (تحفة الأحمدي ج8 ص 423

وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها ، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن النعم ، والمؤمن يعمل بما يشاكلة من شكر النعم ومحبتها والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله⁶¹

الوسيلة التاسعة للتثبيت : تفويض العلم لله

قوله (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (85) فالحديث عن الروح جاء بمناسبة الحديث عن الشاكلة أي "النية" التي تصدر منها الأخلاق الحسنة والقييحة ، فإذا كانت النية محلها القلب ، إذن فالقلب مكلف مثل سائر الجوارح ، وإذا كان الميت ينظر إلى روحه هل هي روح طيبة أم خبيثة علمنا بذلك أن الروح هي خلاصة عمل القلب والجوارح ، فجسد الإنسان عندما يفنى تبقى الروح لترى إما مقعدها من الجنة أو النار ، ثم تتزوج الأجساد مع الأرواح عند البعث فيخلد في الجنة منعما أو في النار فلا يموت فيها ولا يحيى ، الأمر الذي يثير التساؤل عن ماهية الروح ، فأجاب سبحانه (الروح من أمر ربي).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْبِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ فَمَرَّ بَنَقَرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا تَسْأَلُوهُ لَا يَجِيءُ فِيهِ شَيْءٌ تَكْرَهُونَهُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَنَسْأَلُهُ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا الرُّوحُ ؟ فَسَكَتَ فَقُلْتُ إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ فَقُمْتُ فَلَمَّا انْجَلَى عَنْهُ قَالَ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)⁶²

قال الصنعاني (أخبر ﷺ منبها مؤكدا بأن في الجسد مضغة وهي القطعة من اللحم سميت بذلك لأنها تمضغ في الفم لصغرها وأنها مع صغرها عليها مدار صلاح الجسد وفساده ، فإن صلحت صلح وإن فسدت فسد) وفي كلام الغزالي أنه (لا يراد بالقلب المضغة إذ هي للبهائم مدركة بحاسة البصر بل المراد بالقلب لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهي المدركة العارفة من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمطالب ، وهذه اللطيفة علاقة مع القلب الجسماني ، وذكر أن جميع الحواس والأعضاء أجناد مسخرة للقلب وكذلك الحواس الباطنة في حكم الخدم والأعوان ، وهو المتصرف فيها والمردد لها ، وقد خلقت مجبولة على طاعة القلب لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا ، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم به تكلم وكذا سائر الأعضاء ..)⁶³

61 (الفوائد ج1 ص 178
62 (رواه البخاري ج1 ص 213 رقم 122
63 (سبل السلام ج4 ص 173

وفي قوله (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) تفويض العلم لله ، وليس في تفويض الإجابة لله تعالى والوقوف عند ذلك حجر على العقل البشري أن يعمل ، ولكن فيه توجيهاً للعقل أن يعمل في حدوده ، وفي المجال الذي يدركه ، فلا جدوى إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه ولا حتى وسائل إدراكه⁶⁴.

قال صاحب الظلال (والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه ، أودعه هذا المخلوق .. ، وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق ، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود ، والإنسان لا يدبر هذا الكون ، فطاقاته ليست شاملة ، إنما وهب منها بقدر محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض ، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه ، في حدود علمه القليل)⁶⁵.

ورغم أن الإنسان يجهل ماهية الروح ، لكنه في ذات الوقت يسأل عنها ، يعني أنه يعلم يقيناً أن ثمة كائن يسكن جسده وهو الروح ، ورغم أنه لم يرها ، لكنه يؤمن بها ، وموقن أنها تفارق هذا الجسد عند الموت ، فإذا أيقن ذلك فمن باب أولى عليه أن يوقن بخالق هذه الروح ، وهو الله تعالى ، فإنه وإن آمن بالروح كما ذكرنا دون أن يدرك ماهيتها ويعلم أي شيء عنها ، فلما يتردد في الإيمان بخالقها ، إنه ليقيم الحجة على نفسه بسؤاله عن ماهية الروح .

⁶⁴ (في هذا المعنى في ظلال القرآن ج5 ص 43

⁶⁵ (في ظلال القرآن ج5 ص 43

الدرس الثالث

الثبات بعوامل خارجية (إعجاز القرآن الكافرين)

قال تعالى (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89))

إن إعجاز الإسلام كامنٌ في منهجه الذي جعل رحمةً للعالمين، وبقدر تمسك الأمة بهذا المنهج تفيض عليها البركات، وبقدر سلوكها سبيل الغفلة تندثر التعاليم وتنزل الرحمة. وتلك حقيقة قررتها الآيات؛ فالقرآن الكريم منهاج حياة فريد، أخرس بإعجازه المشركين، وعجزوا عن مجاراته أو الإتيان بمثله.

كما تشير الآيات إلى رحمة الله في حفظ هذا الوحي، وتنوع أساليبه في سوق الأمثال والعبر لهداية الناس، وبالرغم من ذلك فإن أكثر الناس يواجهون هذا الفضل بالجحود والنكران، وهو ما يعني بمفهوم المخالفة أن بعض الناس ينتفع بهذا الفضل فيكون من عوامل تثبيته على الحق.

قوله (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) (86) في هذه الآية تهديد للذين لا يؤمنون بالوحي، وكذبوا بالكتاب وبمن جاء به، ولا يستشعرون فضل الله عليهم أن آتاهم الكتاب وجعل من بينهم نبيا، فعن ابن مسعود قال: «لَيُسْرَيْنَ عَلَى الْقُرْآنِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَلَا يُتْرَكُ آيَةٌ فِي مُصْحَفٍ وَلَا فِي قَلْبِ أَحَدٍ إِلَّا رُفِعَتْ» وفي رواية أخرى عنه قال: «لَيَنْتَرَعَنَّ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ»، فقيل: يا أبا عبد الرحمن، كيف ينتزع وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا؟ قال: «يسرى عليه في ليلة فلا يبقى في قلب عبد ولا مصحف منه شيء، ويصبح الناس كالبهائم، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾»⁶⁶

ويتبع ذلك أن يولد جيل لم يتعلم من آبائهم أو من الصالحين شيئا إلا قليلا، ولذلك قال ابن مسعود (ويصبح الناس كالبهائم)، فعن أبي وائل قال: خطب على الناس بالكوفة فسمعته يقول في خطبته: أيها الناس! .. يوشك أن لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه)⁶⁷

وعندئذ لا يرى هذا الجيل من ينههم عن منكر ويأمرهم بالمعروف، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (يُدرَسُ الإسلامُ كما يُدرَسُ وشي الثوب لا يدري ما صيام ولا صدقة ولا نسك ويسري على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ويبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها فقال صلة: فما تعني عنهم لا إله إلا الله لا يدرون ما صيام ولا صدقة ولا

66 (أخرجه الدارمي وصححه الألباني، وحكمه حكم المرفوع لأنه لا يُقال من باب الرأي .

67 (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ج16 ص 197 رقم 44217

نسك فأعرض عنه حذيفة رضي الله عنه فردد عليه ثلاثا كل ذلك يعرض عنه ثم أقبل عليه في الثالثة فقال : يا صلة تنجيهم من النار تنجيهم من النار تنجيهم من النار)⁶⁸

ففي هذا الحديث يُحِبُّ النَّبِيُّ ﷺ بما يَكُونُ مِنْ حَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فقلوه "يُدْرُسُ الْإِسْلَامُ"؛ مِنْ دَرَسِ الرَّسْمِ دُرُوسًا: إِذَا عَفَا وَهَلَكَ، والمراد: تَنْمَحِي آثارُهُ وَأَقْلَامُهُ وَأَحْكَامُهُ، "كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ"، أي: كما يُمَحَى نَقْشُ الثَّوْبِ الْمَرْسُومِ فِيهِ، "حَتَّى لَا يُدْرَى"، أي: لَا يُعْرَفُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، "ما صِيَّامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ".

وعن عبد الله بن مسعود قال (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ يُوشِكُ أَنْ يُنْزَعَ مِنْكُمْ، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ يُنْزَعُ مِنَّا وَقَدْ أَثْبَتَهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا وَأُثْبِتْنَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا قَالَ: يُسْرَى عَلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ فَيَنْتَزَعُ مَا فِي الْقُلُوبِ وَيَذْهَبُ مَا فِي الْمَصَاحِفِ وَيُصْبِحُ النَّاسُ مِنْهُ فَقَرَاءٌ، ثُمَّ قَرَأَ (وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)⁶⁹

فقلوه (يُسْرَى عَلَيْهِ) أي على كتاب الله عز وجل

قلوه "في ليلة"، أي: يَذْهَبُ بِاللَّيْلِ

قلوه "فلا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ"، أي: يَمْحُوهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْكُتُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، وذلك بموت العلماء، يقول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَمَتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)⁷⁰

قلوه "وَبَقِيَ طَوَائِفٌ"، أي: جَمَاعَاتٌ، "مِنَ النَّاسِ: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ

قلوه " يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا"، أي: (مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

قلوه "على هذه الكلمة: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛

قلوه "فنحن نقولها"، أي: يُقَلِّدُونَ آبَاءَهُمْ فِي ذِكْرِهِمْ لِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَتَرْدِيدِهَا دُونَ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ بِمُقْتَضَيَاتِهَا)⁷¹.

فهذا الفضل وتلك الرحمة بإزالة الكتاب وإرسال الرسول قد يذهبان لعدم مبالاة الناس بحق الله عليهم، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ أَمِنْ الْحَلَالِ أَمْ مِنْ الْحَرَامِ)⁷²، فتندثر تعاليم القرآن وآدابه وأحكامه، وروى (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرِّبَا فَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ)⁷³، مما يحول بين الناس والشعور بالإسلام وبركته وحرارته وضوئه، لهجرة الناس له، ونسيان العمل به.

فإذا ما حال بين الناس وكلمة التوحيد حائل الجهل فإنهم قد يعذرون، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيراً مما بعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يُكْفَرُ

⁶⁸ (رواه الحاكم في المستدرک ج 4 ص 587 رقم 8636 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج 1 ص 86 رقم 87

⁶⁹ (مصنف ابن أبي شيبة ج 10 ص 534

⁷⁰ (رواه البخاري ج 1 ص 176 رقم 98

⁷¹ (الدرر السنية : https://dorar.net/hadith/sharh/80432

⁷² (رواه البخاري ج 7 ص 215 رقم 1918

⁷³ (رواه ابن ماجه ج 7 ص 52 رقم 2269 ضعيف مرفوعا

ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول، إذا أمثال هؤلاء عذروا بجهلهم لأن الحجة لم تقم عليهم⁷⁴.

قوله (.. ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) (86) قال شيخ المفسرين الإمام الطبري (وكيلا يعني: قِيَمًا يقوم لك، فيمنعنا من فعل ذلك بك، ولا ناصرا ينصرك، فيحول بيننا وبين ما نريد بك)⁷⁵ والناصر والشفيع في هذا المقام بمعنى واحد، وهو من يدفع عنك العقاب أو يسترد لك الحق.

فيخال لي -والله أعلم- أن "وكيلا" في هذا السياق بمعنى "شفيعا" يشفع لك لرد ما ذهب منه واندثر، فهذا من باب أنهم إذا ظلوا يكذبون بهذه النعمة فإن الله يسلبها منهم، ولن يشفع لهم أحد في مثل هذه العقوبة.

قوله (.. إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) (87)

تجلت في هذه الآية الكريمة أسمى معاني الرحمة الإلهية والفضل الرباني العظيم؛ فما نزل هذا القرآن العظيم، وما أرسل نبي الهدى ﷺ إلا فيضاً من تلك الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. وإن من مقتضيات هذه الرحمة أن حَفِظَ اللهُ وَحْيَهُ، مع قدرته سبحانه على رفعه وإزالته من الصدور والسطور لولا سابع فضله ورحمته بعباده.

ولأجل هذا، جاء الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ استثناءً منقطعاً يفيض بالامتنان، ومعناه: (ولكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك)⁷⁶، (ولكنه سبحانه وتعالى تفضلاً منه على خلقه فإنه أنزله وجعله ميسراً للفهم والتدبر)⁷⁷، ليبقى حجةً باقيةً ونوراً هادياً.

ولما كان هذا الفضل وتلك الرحمة هما قوام الوجود الحقيقي للإنسان، فقد سَمَّى اللهُ عز وجل هذا الوحي "روحاً"؛ لأنه مادة حياة الأرواح ونعيمها، وبدونه تشقى النفوس وتموت. فالقرآن للقلب كالروح للجسد؛ إذا فارقت استحال المبتعد عنه ميتاً وإن كان يمشي بين الأحياء، فلا حياة للعبد ولا هداية إلا بصلته بكتاب ربه. وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ مُبَشِّراً وموجهاً: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرَجَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ»⁷⁸، ليوضح أن أثر القرآن لا يقف عند إحياء الباطن فحسب، بل يفيض جمالاً وزكاةً على ظاهر المؤمن وسلوكه كله.

قوله (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (88) ذلك أن في القرآن له بركة ليس لها نظير يقول سبحانه (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

⁷⁴ (مجموع الفتاوى ج 11 ص 407)

⁷⁵ (تفسير الطبري ج 17 ص 545)

⁷⁶ (تفسير البغوي)

⁷⁷ (مؤلفات الفوزان ج 89 ص 14)

⁷⁸ (رواه البخاري ج 17 ص 48 رقم 5007)

(الأنعام/155) ، فهو معجزة الله الباقية ، والسر في إعجاز القرآن أنه منهج عملي لحياة الإنس والجن ، ويتعذر عليهم مجتمعين أن يأتوا بمنهج لحياهم يضاهي القرآن ، وكلما حاولوا ذلك فشلوا ، لأن الله تعالى هو الذي خلقهم وهو أعلم بمصالحهم ، وهم قاصرون على أن يدركوا ذلك ، وقد كفاهم الله تعالى عبء البحث عن هذه المسألة ، وأغناهم بما أنزله في الكتاب من آيات ، ولكنهم يصرون على أن يعاندوا ربهم ظنا منهم أنهم قادرون على صنع منهج وضعي يفوق كلام الله تعالى في تحقيق الخير لهم ولغيرهم ، ولا يزالون ، ولكنهم كلما حاولوا أثبتوا للجميع وجه إعجاز هذا الكتاب ، وأنه أصلح منهج للبشر لا يضاهيه شيء .

فقد توهم المشركون أن النبي ﷺ قد خلا زمانه من المعجزات الحسية التي فضل الله بها النبيين من قبله مثل معجزات عيسى وموسى ، ولكن الله تعالى فضله على غيره بمعجزة القرآن الكريم ، هذا ما فُضلت به هذه الأمة ، **فِعطاء القرآن لا حدود له** ، ومن فضله تبارك وتعالى على نبيه أن أراه بركة التمسك بهذا الكتاب والعمل به ، من ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ قال: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر؛ وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأبما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل؛ وأحل لي المغنم ولم تحل لأحد قبلي؛ وأعطيت الشفاعة؛ وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة" ⁷⁹ .

أي أن معجزة هذا الدين والتي تظهر فضل الله الكبير أن يظل أثر كلمة التوحيد قائما حتى قيام الساعة حتى وإن اندثر العلم وظهر الجهل ، فلسوف يظل أناس يؤمنون بالله ، وآخرون يعذرون بجهلهم لباقي أحكامه .

قال الباحثون في الإعجاز القرآن أن (النهضة الأوروبية لم تأخذ من العلوم الإسلامية سوى الجانب المادي من منهجها التجريبي ، وتركت جانبا الإيمان الذي يوجهها نحو الله تعالى، ويسخرها لخدمة البشر؟. وجنحوا إلى رد كل شيء إلى العلم بنزعة متطرفة (scientism) حتى أصبح التطور الكمي للعلم والتقنية غاية في حد ذاته، ونشأت (النزعة التقنية المتطرفة Technocracy) التي يرمي من أنصارها من التقنيين والخبراء الفنيين إلى فرض سيطرتهم باعتبارهم الأحق في هذا العصر بإدارة المجتمع واتخاذ القرارات الكبرى بشأنه ، وفي مقابلة ظهرت حركات عقلية جديدة تدعو إلى (اللاعلمية Antiscience) وتحارب الانغماس الأعمى في ماديات الحضارة الصناعية، وترفع صيحات التحذير من أن اطراد التقدم العلمي والتقني بدون النظر إلى صلته بمعنى الحياة الإنسانية التي سوف ينتهي بالإنسان إلى القضاء على حضارته، من هنا كان الإسلام منهجا للتطور المادي والروحي في آن واحد ، فالإيمان الخالص هو الذي يجعل العقل أقدر على كشف الحقيقة العلمية ، وأكثر تحيُّواً لاستقبالها وقبولها) ⁸⁰ .

قوله (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (89) تؤكد هذه الآية ما يتميز به القرآن الكريم عن غيره من الدراسات والأبحاث والمقترحات والمشروعات والخطط والمقارنات والكتب ، بأنه ما نزل إلا ليكون منهجا عمليا للناس في كل شيء ، فيه حل لكل مشكلة ، ومثل لكل حالة

⁷⁹ (متفق عليه في الصحيحين
80 (أ د أحمد فؤاد باشا: المنهج العلمي المعاصر في ضوء القرآن الكريم : موقع إعجاز القرآن والسنة <https://quran-m.com/>

قال ابن تيمية (اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة التي توجد في كلام جميع العقلاء من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم . ونزه الله عما يوجد في كلامهم ؛ من الطرق الفاسدة ويوجد فيه من الطرق الصحيحة ما لا يوجد في كلام البشر بحال)⁸¹ .

ونظائر هذه الآية في القرآن كثيرة منها قوله تعالى (ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليدّكروا وما يزيدهم إلا نفورا) [41/17]، وقوله: (وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يُحدثُهم ذكرا) [113/20] ، وقوله: (ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) [27/39]- [28]، وقوله: (ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليؤمنن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) [58/30]

ولكن الذين يكفرون به لا يعون ذلك ، ولا يزالون يستوردون حلولاً من غير هذا المنهج ظنا منهم أن القرآن ليس فيه إجابات لحاجاتهم ، قال تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) (الفرقان 23) فأين حلولهم لمشاكل الأسرة ، والجنايات ، والعلاقات الاجتماعية ، وآداب الجيران ، والعلاقات الدولية ، وأخلاقيات الحرب والسلم الخ ، فليس غير القرآن كتاب سلك تلك المسالك وجاء بما ينبغي أن يسير عليه الناس لتحقيق الخير وصالحه ودفع الشر عنهم واجتنابه.

إذن محل التحدي في القرآن لا يقتصر على الإعجاز اللغوي ولا العلمي ولا البياني ولا الروائي ولا النظامي ولا الإيقاعي - وحسب - وإن كان أحدهم - في ذاته - كافيا لذلك التحدي ، وإنما كلام الله المنهجي والتربوي والإصلاحي المذكور في القرآن الكريم هو ما عجز الإنس والجن على أن يضاهوه بمناهجهم الفاسدة المنبئة الصلة عن الله .